مجلة إشكالات في اللغة والأدب مجلد: 08 عدد: 05 السنة: 2019
ص: 249 - 264 E ISSN: 2600-6634 / ISSN:2335-1586

الحداثة وجدل الذات والهوية بين الفكر والأدب

Modernism and the Dialectic of theSelf and Identity between Thought and Literature

د. **بلخير ارفيس** *

Belkheir Refice

جامعة محمد بوضياف المسيلة

University of Msila/ Algeria

تاريخ الإرسال:2019/05/16	تاريخ القبول: 2019/09/30	تاريخ النشر: 2019/12/01

ملخص البحث

يحاول هذا المقال دراسة المفاهيم المتعلقة بالحداثة، وما يحمله كل مفهوم من شحنات فكرية أو نزعات مذهبية، وذلك وفق رؤية استقصائية تحليلية لأهم الروافد الابستيمولوجية، ،والمرتكزات الثقافية.

كما يحاول هذا المقال الغوص في الآثار التي خلفتها تلك المفاهيم في العديد من الجوانب العلمية والدينية والفكرية والأدبية،وفي مدى إمكانية الانصياع وفي درجته، إما بالتماهي المطلق، أو التبني الحذر، أو الرفض التام؛فأي موقف من هذه المواقف الثلاثة هو الذي يحدد طبيعة الذات؟ ويرسم حدود الهوية في كل ميدان من ميادين الحياة؟

الكلمات المفتاح:حداثة، ذات،هوية، أدب، فكر.

Abstract:

This article attempts to study the concepts of modernism and the implications of each concept in intellectual or doctrinal tendencies in an analytical view to the most important sources and thecultural foundations that have been established.

This article also attempts to explore the effects of these concepts on many scientific, religious, intellectual and literary aspects, and on the extent of obedience and its degree, either by absolute melting, cautious adoption or total rejection. Which of these three positions determines the nature of the self?And which delineates the boundaries of identity in every field of life?

Keywords: Modernism, Self, Identity, Literature, Thought.

* بلخير ارفيس: belkheir.refice@univ-msila.dz .

مقدمة:

إن وعي الإنسان بذاته، وإدراكه حقيقته وطبيعة العالم حوله، هي اللحظة الفاصلة في تاريخه؛فوعي الذات بالأنا،وانفتاحها على الآخر، وإدراكها لكل ما يصول ويجول، هي الخطوة الأولى نحو تغيير الذات، وإبحارها في عالم الموجودات برؤية ثاقبة، وعين باصرة.

إن هذه اللحظة–لحظة وعي الذات بذاتها–تشبه إلى حد بعيد لحظة الولادة،ووجه الشبه يكمن في الصفاء التام دون خلفيات فكرية أو معتقدات مذهبية،ولعل هذا الأمر هو ما حدث مع الإنسان الأوربي وقت ما يعرف بعصر التنوير.

إن أهم ميزة في ذلك العصر، هي بحث الذات عن موقع لها أمام عديد الذوات الميتافيزيقية، والكينونات الماورائية، ولهذا وضعت لنفسها العديد من المبادئ كانت بمثابة الأسس التي تسير عليها، والحدود التي ينبغي ألا تحيد عليها.

و محاولة لتسمية تلك المبادئ و رسم تلك الحدود فقد أطلق عليها اسم "الحداثة"، وتفتيتا لهذا المصطلح؛ ،فإن هذا المقال سيحاول جاهدا أن يغوص في أهم مفاهيمه الاصطلاحية، مركزا على أهم شحناته الفكرية ،وحمولاته المعتقدية .وأهم آثاره في مجالات الفكر والسياسة والدين والأدب.

أولا: تعريف الحداثة:

1–لغة: إذا استقصينا المفهوم اللغوي للحداثة فإننا نجد مايلي:

ورد في معجم العين ما مفاده " يقال :صار فلان أحدوثة، أي كثروا فيه الأحاديث . وشاب حَدَثٌ وشابة حَدَثة :فتية في السن، والحدث من أحداث الدّهر شبه النازلة والأحدوثة : الحديث نفسه، والحديث :الجديد من الأشياء"[1]

وأما"الزمخشري "في" أساس البلاغة فلم يبتعد عن ما أورده الخليل، حيث يقول" حدث : هو حَدَث من الأحداث، وحديث السن... وأحدث الشيء واستحدثه، قال الطِرماح:

ظعائنٌ يستحدثنَ في كل موقفٍ رهينا و ما يُحْسَنُ فك الرهائنِ

واستحدث الأمير قرية وقناة، واستحدثوا منه خبرا؛ أي استفادوا منه خبرا جديدا"[2]

وأورد ابن منظور في"لسان العرب "ما مفاده:" حدث، الحديث: نقيض القديم، والحدوث نقيض القُدمة، وحدث الشيء يحدث حدوثا وحداثة ، وأحدثه فهو حدَ ث وحديث،

وكذلك استحدثه... والحدوث كون شيء لم يكن، وأحدثه الله فحدث، ومحدثات الأمور ما ابتدعه أهل الأهواء من الأشياء كان السلف الصالح على غيرها، وفي الحديث(إياكم ومُحدَثات الأمور) جمع محدَ ثة بالفتح، وهي ما لم يكن معروفا في كتاب ولا سنة ولا إجماع... وأخذ الأمر بحدثانه وحداثته أي بأوله وابتدائه"[3]

وأما" الزبيدي "فيتطابق تعريفه إلى حد بعيد مع تعريف ابن منظور ،حيث يقول:" الحديث نقيض القديم...والحدوث كون شيء لم يكن، وأحدثه الله فهو محدث وحديث، كذلك استحدثه...وحِددثان الأمر بالكسر :أوله وابتداؤه"[4]

ومن خلال القراءة المتأنية للتعريفات اللغوية يمكننا أن نخلص إلى أنها تصب في قالب واحد وهو الجدة عكس القدَم، والحديث :ما لم يكن معروفا، واستحدث فهو جديد في زمانه، أما قبلا فهو قديم، والحداثة تعني الجدة والابتكار والإتيان بالجديد.

وأما أصل الكلمة في اللغة اللاتينية فهوModernus فقد ظهر في القرن الخامس" و اشتق من كلمة Modo التي تعني : حديثا، الآن، إذن كلمة"Modernus" لا تعني ما هو جديد بل ما هو راهن و معاصر للشخص المتكلم"[5]

ويرى آخرون أن "الوعي بالحداثة نشأ في العصر الوسيط، وكان المصطلح اللاتيني Saeculum Modernorum أما الصفة Modernus فقد ظهرت في القرن السادس عشر، و ترد إلى لفظ mode أي المعيار أوالمقياس، وفي القرن السابع عشر قامت مشاجرة بين السلفيين والمحدثين، وقد نشأ اللفظ الفرنسي في القرن التاسع عشر عند شاتوبريان1849)

Modernité" مودرنتي الفرنسية فهي مشتقة منMouds التي تعني الشكل والطريقة والصيغة"[6]

ثم أخذت كلمة"Mode" الجذر لكلمة الحداثة بعدا في عالم الموضة، وارتبطت به غير أنها في العربية لم ترتبط بالشكل والصيغة، بل بالحدوث والراهنية والزمنية والمستقبلية[7]

وهذا المفهوم هو الذي تبناه الدارسون العرب إذ تعني المودرنيزم عندهم العصرية، والعصرانية والحداثة، كما ورد المصطلح في القواميس اللغوية"[8]"

2-اصطلاحا:

أ-عند العرب

لقد تعددت التعريفات لمفهوم الحداثة،كون التحديث،وهو المنجز الفعلي للحداثة، بغض النظر عن المستوى الذي لحقه ، قد يكون في ميادين عدة لا فصل بينها إلا العناوين في المقالات والكتب، وفي الواقع تجمعها الرؤية ويوحدها الهدف.

وعلى هذا الأساس يمكننا أن نورد التعريفات التالية للباحثين العرب:

- ✓ يعرف" جبور عبد النور "الحداثة بقوله: هي جدة، إتيان بالشيء الذي لم يؤت بمثله من قبل و يتحرر من إسار المحاكاة، والنقل، والاقتباس واجترار القديم، و قد تتمثل الحداثة في الأسلوب، أو في المضمون، أو في الاثنين معا، فيكون صاحبها مبدعا وخالق مذهب جديد مطبوع بسمته المميزة"[9]

ويتميز هذا التعريف بالشمول،كونه ركز على جانب الحداثة في مقابلة القديم،والذي غاب عنه أنه يمكن في بعض الأحيان استدعاء شيء من الأرشيف ليؤدي غاية قد لا يستطيع محدث تأديتها.وفي اعتقادنا أن هذا التعريف قاصر إلى حد ما في إعطاء المفهوم الحقيقي للحداثة،وهو ما ستثبته بعض التعريفات اللاحقة.

- ✓ عرفها" محمد بوزواوي " تعريفا ينزع إلى الجانب الأدبي فيها حيث بقوله:الحداثة كمصطلح أدبي (Modernisme تعني: الجدة، ومواكبة العصر في مجالات الفكر، ولاسيما في حقول الإبداع الأدبي والفكري والفني [...] وغالبا ما توضع الحداثة مقابل النزعة التراثية، ولطالما طرحت إشكالية العلاقة بين الحداثة والتراث"[10]

إننا مقتنعون جدا بأن الأصل في الحداثة هو الابتكار والخلق والإبداع، وهي ضد القديم لغة، لكنها لا تناقضه اصطلاحا ،بل تستمد منه أصالتها؛ فالذي يبغي الحداثة ينبغي عليه" العودة إلى الأصول القيمية للتراث"[11] ،ذلك أن فهمه" حاجة ملحة دائما من أجل فهم المستقبل عبر الماضي فهما إنسانيا وأخلاقيا ومعرفيا"[12]

ب– عند الغرب:

الحداثة(Modernisme) مصطلح غربي حديث، اختلف النقاد حول سنة ظهوره، فهناك من يرجعها إلى ما بعد سنة 1453 سنة سقوط القسطنطينية[13]،أين شهد الغرب إصلاحات دينية واكتشافات علمية ، فكانت الحداثة بمثابة"ردة فعل على الكنيسة اللاهوت

والاعتراف بثنائية العقل الإلاهي والعقل البشري وإلغاء الوساطة بين الإله والإنسان من خلال الكنيسة"[14]

ولم يستقر مفهومها إلا في عصر الثورة الفرنسية حيث أصبحت تعني" التوجه الجماعي نحو التقدم ".

وفي اللغة الروسية أخذت منذ القرن التاسع عشر معنى سياسيا" التقدمية و اليسار " ،وأما في اللغة الألمانية فارتبطت بالمستقبلية والدادائية والسوريالية ،وفي اللغة الإنجليزية تأخر ظهورها إلى حوالي العقد السادس من القرن العشرين"[15]

وظهرت كلمة الحداثة(Modernité) عند بلزاك(Balzac) سنة (1822)بمعنى العصر الحديث، أي ما نتج عن النهضة الأوربية، و تعني عند نيتشه Nitzsche زمن الانحطاط والعدمية، فيما يُرجح أن تكون البداية الفعلية للحداثة الأدبية سنة (1850)في أعمال بودلير(Baudelaire)تحديدا[16]

ولم تتجل الحداثة بمفهومها الدقيق إلا في أعمال الرمزيين الفرنسيين"ولم تبلغ ذروتها إلا في العقود الأولى من القرن العشرين في التكعيبية الفرنسية، والتعبيرية الألمانية، والمستقبلية الروسية ،والصورية(Imagisme) الأنجلوساكسونية"[17]

وبذلك تكون بدايتها الحقيقية "مع عصر الأنوار بفعل أولئك الذين أظهروا وعيا وبصيرة باعتبار أن هذا العصر هو حد فاصل ومرحلة نهائية من التاريخ"[18]

أضف إلى هذا، أنها لم تكن مقصورة في قطر من الأقطار، بل كانت ممتدة من روسيا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، وأمريكا اللاتينية.[19]

وعلى هذا الأساس ، يمكننا القول:إن الحداثة متعددة الأصول والنشأة والمفهوم، واللغة، بل مختلفة باختلاف أماكن اتساعها، وإن اختلفت كمفهوم ومصطلح فإن ما أنتجته من حمولات معرفية نقديةيكفي ليشير إلى أهميتها في النهوض بالعالم الغربي و في جميع مجالات الحياة.

وإذا كان هيجل(Hégel) هو الممثل الأول للحداثة الغربية في مسارها الأول، فإن جوس (Jauss) يمثل مسارها الثاني"الذي يرى الحداثة ترسخ تقاليد أدبية عريقة"[20]

والفارق بين الرجلين هو أن الأول"هيجل" رفض التقاليد، بينما تمسك الآخر" جوس " بها، فمصطلح الحداثة إذا ليس جديدا، بل هو ممتد إلى العصور القديمة إلى الثقافة اليونانية

واللاتينية على السواء أين ظهرت صراعات بين أنصار القديم وأنصار الحديث ،وبهذا يبقى الحديث والتمسك بالقديم يسيران جنبا إلى جنب حسب جوس[21]

ورأي جوس هو الذي تبنيناه في بداية تعليقنا على التعريفات الأولى ،وانتصرنا له،فالحداثة ينبغي أن تستمد رؤيتها وفق ما يتطابق مع مقتضيات الحديث، ولو كان باستدعاء ما هو تراثي وقديم،والكارثة في هذا الأمر هو التعصب للحديث وتبجيله دون التثبت من مدى قابليته للتحقق في المرحلة الحديثة.

ولهذا فالحداثة لا يمكن أن تحد بزمن، كما لا يمكن الحكم على العمل الفني من خلال معيار القدم أو الحداثة لكن من خلال"هذا الجمال السري أو هذا الشيء الذي بدونه لا يستحق العمل أن يكون حديثا ولا قديما"[22]

ثانيا:مقومات الحداثة الغربية وأسسها

لم تكن الحداثة نابعة من أهواء ،أو مبنية على افتراضات،بل إنها كانت مجموعة تراكمات اختلف أصحابها في طبيعة الزاوية المقصودة،لكنهم اتفقوا على الغاية والهدف،وهو تحرير الإنسان وتنويره بالقدر الذي يجعله يحكم زمام أموره بوعي ،ويمكننا أن نلخص أهم الأعمدة التي قامت عليها الحداثة في النقاط التالية:

1-**العقلانيةRationalité**:

تنبثق العقلانية من العقل وتتأسس عليه،فلا عقلانية دون اعتماد العقل ،وجعله الدليل والقائد في جميع مناحي الحياة،ونظرا لأهميته في إخراج الإنسان من عصر الظلمات والأهواء إلى عصر العلم والأنوار ،عُرفت الحداثة به،بل وارتبطت به للحد الذي أصبح يُتحدث عن عقلانية الحداثة والحداثة العقلانية،فأصبحا بذلك وجهين لعملة واحدة.

وارتباط الحداثة بالعقل جعل الإنسان الغربي يعيد التفكير في العديد من المفاهيم التي طالت جميع مجالات الحياة،ففي المجال العلمي أصبحت الصدفة والهوى والخرافة من تبعات الماضي، وحل العلم والتطبيق محلها،فأصبح الإنسان يفكر،ينظر ،يفترض،يجرب وفي الأخير يستخلص النتائج ويعلق عليها فيبررها أو يدحضها وفق رؤية علمية واضحة .وبذلك تحرر الإنسان من عديد المقولات التي كبلته وكبدته معاناة طال انتظارها.

وعليه يمكن القول إن" الفكر الفلسفي في المناخ الكلاسيكي الغربي قد أسس حداثته بمحاولة إعادة الاعتبار إلى العقل وإثباته من ناحية، وباستبعاد اللاعقل بجميع مظاهره من جهة أخرى، باعتباره منبع الفساد والتشويش والخراب... وعلى هذا فالعقل مفتاح الحقيقة والأسطورة مخبؤها، وبالعقل يستطيع المرء أن يسيطر على ما تخفيه الأسطورة، وأن يكشف وظائفها لفهم مقاصدها"[23]

وبهذا أصبح العقل مركزا تدور حوله جميع الأفكار و مبدأ لكل نشاط علمي ومرجعا لكل معرفة، و من شأنه أن يحدد علاقته الشائكة بذاته؛ أو ما يعرف بالوجود الداخلي، أو ما يحيط به؛ أو ما يعرف بالوجود الخارجي، فهيغل رأى أن من شأن إعمال الإنسان الحديث لأول مرة في تاريخ البشرية، النظر في الآفاق وفي نفسه، إن عمل هو على إزالة غربة الذات في الطبيعة وغربة الطبيعة في الذات"[24]

وهذا الطرح هو الذي يؤيده ماكس فيبر؛حيث يرى أن الحداثة ترتبط بالعقلانية في صورة تلازم واضح ودائم كرسه الفكر الغربي إلى الحد الذي يجعله ارتباطا داخليا بديهيا؛ بالنظر إلى تاريخ أوربا الحديث الذي استقلت فيه الفنون والمنظومة الأخلاقية والقانونية، مناهج العلم ونظرياته من قيود الدين وسيطرته، والتي مثلت في نظر المثقفين الغربيين عائقا حال دون التقدم المرجو، وهو ما أدى إلى ثقافة دنيوية، فالمعقولية هي قبل كل شيء؛ حقل فيه تنتظم معارفنا وتتحد تدخلات الإنسان لفهم الطبيعة والحياة فهما يقترب من حقيقة واقعها[25]

2-الذاتيةLa Subjectivité

إن الحديث عن الذاتية يقتضي حتما الحديث عن الأنا،وإذا قلنا الأنا فإننا نقصد به المفهوم المضاد لل "النحن"،فالحداثة قامت على تبجيل الذات الإنسانية وتحريرها من كل قيد،بل أصبحت هي المركز الذي تدور حوله جميع الأشياء،بل أصبح تبرير وجود الذات بالتفكير،وهو ما أسسه ديكارت حين قال:"انا أفكر إذن انا موجود" فقد كان قصده يهدف إلى تحرير الإنسان وانعتاقه من النحن والذوبان فيهامن جهة ،وإبراز الطرق المفضية إلى ذلك الانعتاق وهو التفكير،وبذلك أصبحت الذات" مقر ومرجع الحقيقة واليقين، وهي المركز والمرجع الذي تنسب إليه الحقيقة لكل شيء... أي تنصيب الإنسان ككائن مستقل وواع وفاعل ومالك للحقيقة"[26]

ولهذا فالتخلص من الضمير النحن كان ضروريا لتحقيق الذات،ولهذا لم يعد ما يطرحه القس أو تقره الجماعة،أو تفرضه التقاليد أمرا ملزما للذات الواعية،بل على النقيض من ذلك ،فقد أصبحت الثورة على هذه المفاهيم من أهم الأسس التي ينبغي على الإنسان الحداثي الاعتماد عليها،فالذات غاية ووسيلة في ذاتها،وكونها غاية يعني أنها تبحث عن كل الطرق الكفيلة بإشباع رغباتها،وأما كونها وسيلة فمعناه أن تبحث عن ذلك انطلاقا من ذاتها بفكر حر ونظر مستقل عن الآخر.

ولهذا فإن وعي الإنسان بذاته، وإدراكه نفسه أهم شيء قام عليه الفكر الحداثي؛ذلك أن مدار الأمور كلها قد أصبح قائما على تحليل الوعي "و لملكاته وقواه، فوعي الإنسان لذاته أساس كل فكر لدى الإنسان، وانطلاقا من الوعي وحده يستطيع المرء أن يقوم بوصف لظاهرات العالم، وانطلاقا من الوعي وحده نستطيع أن نحدد ما يجب أن نعتبره موجودا حقا، عندئذ تتطابق الحقيقة مع التمثلات اليقينية، ويومئذ ، نجد" الأنا "التي تشكل تمثلاتها وقد أصبحت مناط كل ما هو موجود "[27]

ونظرا لهاته المركزية التي استحوذتها الذات،فقد كان لا بد لها من أن تبرر سلوكاها،وتعلل تصرفاتها،سواء أكانت تلك التصرفات مما يقتضيه العقل أو يرفضه،ولهذا فإن النظرة الأنانية للذات الإنسانية ألزمتها على الاستنجاد بالعقل قصد تبرير كل ما يصدر عنها،فما كان عقلانيا أيدته،وما كان غير عقلاني سارعت إلى عقلنته وفق مجموعة من التصورات والمفاهيم يدرك الإنسان من خلالها أنه واعي في لحظة اللاوعي.وبذلك توجه الفكر الحداثي

"وجهة جديدة نحو تحقيق غايات ذاتية أنانية، كان الفكر الفلسفي الغربي الحديث يصبوا للتخلص من استبداد الكنيسة، وسيطرة الباباوات وطغيانهم باسم الدين، فاختلط بذلك العقل واللاعقل، سواء أكان ذلك على المستوى النظري المحض، أم كان ذلك على المستوى العلمي التطبيقي، ليمتد هذا الخلط بعد ذلك إلى الأخلاق والسياسة والاقتصاد والاجتماع دون حدود تحده أو قيود تقيده"[28]

وبالتلازم هذا بين مركزية الذات،ووحدة العقل،أصبح احتلال العالم أمرا مشروعا أمام الإنسان،فهدم جميع القيود، وفك كل الأغلال،مرخيا للأنا الغوص في جميع الميادين وشتى المجالات للبحث في الظاهر من أبسها إلى أعقدها ،ومن مدنسها إلى مقدسها،وبذلك فإن "ثمرة انتصار

الحداثة هي تحرير الروح واستقلالية الذات البشرية، وتقابل الإنسان مع نفسه كذات واعية، سيدة، مريدة وفعالة"[29]

3-الحريةLa liberté

تعد الحرية أساس الذات ودعامة والعقل لتحقيق وجود الإنسان وإثبات ذاته، فلا فكر دون عقل،ولا فكر دون حرية،ولهذا فمدار الأمور كلها قائم على مبدأ الحرية،فمبدأ الحرية هو الذي يعطي الإرادة البشرية لأن تحقق ذاتها،وأن لا تعلو عنها أية إرادة كونية أخرى لتقيم مجتمعا، وتؤسس دولا، وتبني مؤسسات.

وأول من حقق مبدأ الحرية فلاسفة الحداثة وروادها، ابتداء بديكارت حينما ربط كنه الفكر بالإرادة، وأوسطه تحقق مع ليبنتز(1716.1646) الذي عمم مبدأ الإرادة هذه،وجعل من كل كائن مريد. ومنتهاه مع كانط الذي جعل من الإنسان الكائن الحر بامتياز،وجعل من الحرية مقدرة الإنسان على التشريع لنفسه، وذلك من دون سند خارجي أو عون موضوعي[30]

وأساس الحرية هو الاعتراف بحرية الآخر كذات لها إرادتها الخاصة تطمح لكل شيء يريده الأنا ،وهو أمر يجعل العلاقة في بيئة اجتماعية واحدة قائمة على التساوي في الحقوق والواجبات،فالحرية فضاء تنصهر فيه جميع المفاهيم البالية كالعبودية والسيطرة وقانون الغاب وما إلى ذلك،ويحل محل كل هذه الأفكار الاعتماد المتبادل؛بمعنى أن أي شخص لا يمكنه أن يشبع جميع حاجاته بمفرده ،بل إن عليه في أغلب الأوقات الاعتماد على الآخرين،ونفس الشيء بالنسبة للآخر لايمكنه أن يحقق كل ما يريد إلا إذا اعتمد على غيره

وبذلك لم يعد مفهوم الحرية أمرا نظريا ،بل أصبح ذا بعد تطبيقي عملي؛إذ نزل من برج الاستعلاء الميتافيزيقي ليصبح مفهوم امبريقيا، تُؤسس المعاهد لدراسة مدى درجات الحرية في أي بلد في العالم،ولهذا" فالوعي بالحرية لا يجري في عالم الفكر المجرد، بل في مؤسسات وتنظيمات ترافق الثقافة المظهرة لفكرة الحرية وتتفاعل معها، وهكذا تتألف حضارة الحرية من ثقافة الحرية، ومن مؤسسات الحرية، وتتطور على الدوام من جيل إلى جيل، لا بتأثير التفاعل بين نشاط الثقافة وإيقاع المؤسسات فقط، بل بتأثير التحولات داخل الثقافة، وداخل المؤسسات أيضا"[31]

ولعل أبرز مظهر تجلت فيه الحداثة،بل وكان البوابة التي دخلت منها جميع مشاريع التحديث هو العمل السياسي ،ودمقرطة الحياة السياسية" إذ لا يمكن التفكير في العمل

الديمقراطي خارج الأرضية الفلسفية والسياسية الحداثية المؤطرة لهذا العمل، وتفي مراجعة كيفيات تشكل التجربة الديمقراطية في تاريخ الفكر والممارسة السياسية في الغرب لنتأكد من المواكبة الحاصلة ضمن هذا التاريخ، بين المرجعية الفلسفية والحداثية وتجلياتها في الفضاء السياسي والاجتماعي والثقافي كفضاء ديمقراطي"[32]

وبذلك أصبح العقل والذات والحرية أضلاع مثلث التحديث،و الرحى التي تدور حولها جميع مناحي الحياة،فلم يبق شيء سواء أكان مقدسا أو مدنسا إلا وتم تحديثه، وذلك ،باستبعاد الماضي وتجاوزه كليا في بعض الأحيان،والسعي للتأقلم مع الحاضر لوضع رؤية يمكن بها النظر إلى المستقبل:ويمكننا تفصيل ذلك كالآتي:

ثالثا–الحداثة وجدل الدين والسياسة والأدب:

في هذا المحور ،نروم الخوض في تمظهرات الحداثة في أهم ميادين الحياة،ويتعلق الأمر بالدين والسياسة والأدب،وقد تم اختيار هذه المجالات لأن أول ما ثار عليه الإنسان الغربي هو التقاليد الكنسية الجائرة، ومحاولته فصل الدين عن الحكم،ويجسد ذلك في مجموعة من الإبداعات الأدبية،فالكنيسة تمثل الدين،والحكم يمثل السياسة والإبداع يمثل الأدب.

1–عقلنة القول الديني :وذلك بإقحام العقل في إعادة قراءة وفهم النص الديني،منطلقين في ذلك من ضرورة أن يكون ذلك الفهم وفق ما يقتضيه الحاضر، وما يتطلبه من تكييف تلك المفاهيم الدينية لتسهم في حلحلة كل القضايا المعاصرة من أجل إسعاد الإنسان وتحقيق رفاهيته.

وهذا الطرح يفرض بصورة آلية التخلي عن القراءات التراثية الراكدة، والتي كانت سببا في تحجر الإنسان الغربي وتخلفه عن أنظمة العلم والتمدن والحضارة،فإعادة فهم الدين،وتجديد العقيدة،وتقوية الإيمان ينبغي أن تبنى وفق ضوابط عقلية ، ولهذا "فالعقلنة في المجال الديني تعني التدخل في جميع مستوياته بدقة لإصلاحه والابتعاد به عن طريق التحريف والغطرسة والتسلط"[33]

ومن أكبر الداعين لإعمال العقل في إعادة قراءة الخطاب الديني وتجاوز المفاهيم التراثية نجد توماس مور(1535.1478) حيث رفض الجمع بين السلطتين الدينية والزمانية فجره هذا الأمر إلى عدم الاعتراف بالملك رئيسا للكنيسة، وهو ما أدى إلى إعدامه .

كما تبنى هذا الطرح العديد من المفكرين العرب،ومنهم:

-عبد المجيد الشرفي ومن كتبه:الإسلام والحداثة، الدار التونسية للنشر، تونس، 1991، إعادة نشر دار الطليعة، بيروت، 2009.

-محمد أركون ومن كتبه: تاريخية الفكر العربي الإسلامي أو "نقد العقل الإسلامي"؛

-الطيب التيزني ومن كتبه: النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة

-محمد شحرور ومن كتبه: الكتاب والقرآن – قراءة معاصرة

والإشكالية المطروحة هي إلى أي مدى وُفق هؤلاء في إعادة قراءة الموروث الديني وفق الطروحات الحداثية،ولماذا نجد الكثير من المفكرين ينتقصون أعمالهم ،بل وينكرون عليهم تبني تلك الأفكار، وطرح تلك التصورات.

ونحن نعتقد أن الخوض في الأمور الدينية وفق المعطى الحداثي -وهو الموروث الغربي- وتطبيقه على المقدس أمر ينبغي التعامل معه بكثير من الحذر،فحدود إعمال العقل في الأمور الدينية محدود خصوصا ما تعلق بالأمور التي فيها إجماع عند جمهور العلماء.

كما نعتقد أن الحديث عن تبني الطرح الحداثي في معالجة الديني المقدس يقتضي العديد من المؤلفات والأبحاث العلمية،وفي مقال مثل هذا لا يمكن سوى طرح أهم المفكرين الحداثيين في الخطاب الديني،وترك المجال لكل الباحثين في إعادة دراسة أفكارهم وتحليل طروحاتهم كما فعل الكثيرون من قبل

2-عقلنة القول السياسي: إن العقلنة في المجال السياسي تعني جعل الظاهرة السياسية معطى مستقلا قابلا للفهم والتحليل،بعبارة أخرى ،ينبغي الابتعاد عن كل ما هو ميتافيزيقي في شرح وتعليل الظاهرة السياسية،وهي النظرة التي كانت سائدة، وذلك لارتباطها بالجانب الديني في طابعه المقدس،وإقحام الفرد ليكون فاعلا في مجتمع لا يقبل السلطوية والتحجر

ولذلك فإن أهم ما يميز العقلنة السياسية هو " نزع القداسة عن المجال السياسي باعتباره مجالا دنيويا للصراع حول الخيرات والسلط والرموز "[34] ويعد ميكيافيلي الإيطالي في كتابه الأمير المرجع الأساس لأهم المفاهيم الحداثية في عقلنة الفعل السياسي.

إن عقلنة العمل السياسي يعني تقوض أركان النظرية الإلهية في الحكم وإحلال نظرية العقد الاجتماعي محلها،ذلك أن جون جاك روسو قد أرسى الدعائم الكبرى للعملية الديمقراطية،وعليه " لا يمكن التفكير في العمل الديمقراطي خارج الأرضية الفلسفية، والسياسية

الحداثية المؤطرة لهذا العمل .وتكفي مراجعة كيفيات تشكل التجربة الديمقراطية في تاريخ الفكر والممارسة السياسية في الغرب، لنتأكد من المواكبة الحاصلة ضمن هذا التاريخ بين المرجعية الفلسفية والحداثية، وتجلياتها في الفضاء السياسي). والاجتماعي والثقافي كفضاء ديمقراطي "[35]

3–عقلنة القول العلمي :ويعني اعتماد العقل في إعادة فهم الظواهر العلمية،وجعل التجريب و البرهان العلمي أسسا لذلك،والتخلص من كل التصورات الميتافيزيقية، وتجنب التفسيرات الإيديولوجية ذات الصبغة الدينية ،ومن أبرز ملامح التحديث العلمي قيام النموذج الرياضي واعتباره المقياس الوحيد في منهجية التفكير.

لقد بدأت هذه العقلنة على يد علماء وفلاسفة أخذوا على عاتقهم محاربة تقاليد الكنيسة ومنهم: كوبرنيك(1473،1543)
وغاليلو(1564،1642)وديكارت(1596،1650)[36]

4– عقلنة القول التاريخي :وتعني اعتماد العقل في فهم السيرورة التاريخية،وجعله المرجع الأساس في تغيير مجرى تاريخ الأمم ومصيرها،وجاء هذا الطرح ليهدم الطرح المسيحي الذي جعل ميلاد المسيح بداية التاريخ، وهو بهذا يحقق الانفصال عن الكنيسة والصبغة المسيحية ،هو ما فتح الباب على مصراعيه للإنسان الغربي في إعادة بناء نهجه الحضاري ووحدته بعيدا عن الأطر الدينية،وهو ما يحقق له "الانفصال عن التقاليد عموما وعن النقل خصوصا، وتشخيص الواقع الماضي تشخيصا يخول لنا فهم الحاضر والعمل على تغييره"[37]ومن أكبر الداعين لعقلنة التاريخ نجد كلا من: فوكو(1668.1744) ، وكانط(1727.1804)وهردر(1744.1803) وفختة(1762.1814) وشلنغ(1775.1854) وهيغل وغيرهم كثير.

الحداثة في الأدب:يحمل الأدب في طياته امريم كالاول العملية الإبداعيةوالثاني قراءةالجوانب لجمالية في تلك العملية الإبداعية،وبعبارة أخرى يجمع بين الإبداع والنقد،ومن هنا جاز لنا أن نطرح الأصول التي ينبغي أن تعتمدها العملية الإبداعية لتبرز بها جالها وتثبت بها تفردها ها من جهة ،وعن الأصول النقدية الماحصة للعمل الإبداعي والفاحصة له

والتساؤلات التي تطرح في كلا الأمرين كثيرة وجوانبها متعددة،ولعل أهمها:هل يوجد نموذج موحد تُصب في جميع القوالب الإبداعية للحكم على جماليتها،والثاني هل هناك رؤية موحدة يعتمدها النقاد للفصل بين الجميل وغيره؟

ولعل الإجابة على السؤالين سالفي الذكر بسيطة، فالجمال يعتمد الذوق، والذوق مختلف إنسانيا، ولهذا تعددت الأعمال الإبداعية وتنوعت بل واختلفت حتى في الجنس الواحد،كما أن التيارات النقدية في سيرورتها التاريخية تثبت التحول وتنكر الثبات وعجلتها مستمرة في هذا المضمار.

لقد تم اعتناق الحداثة في العالم العربي سواء إبداعا أو نقدا كما حدث مع المذاهب الفكرية ، والتيارات الأدبية التي سبقتها كالبرناسة ، والواقعية ، والرمزية ، والرومانسية ، والوجودية ومن روادها العرب على أحمد سعيد المعروف " بأدونيس " ،الأب الروحي والمنظر التاريخي لها، وزوجته خالدة سعيد من سوريا، وغالي شكري ، وعبد الله العروي من المغرب ، وكمال أبو ديب من فلسطين ، وصلاح فضل ، وصلاح عبد الصبور من مصر ، وعبد الوهاب البياتي من العراق ، وعبد العزيز المقالح من اليمن ، وحسين مروة من لبنان ، ومحمود درويش ، وسميح القاسم من فلسطين ، ومحمد عفيفي مطر ، وأمل دنقل من مصر ، وعبد الله الغذامي من السعودية ، وغيرهم .

ويلخص أدونيس في كتابه التابث والمتحول مفهوم التحديث عنده حين يقول:" لا يمكن أن تنهض الحياة العربية ، ويبدع الإنسان العربي إذا لم تنهدم البنية التقليدية السائدة للفكر العربي ، ويتخلص من المبنى الديني التقليدي الاتباعي " [38]

لقد ربط أدونيس بين الإبداع والتخلص من الدين،معتبرا بذلك الدين أهم عائق أمام العملية الإبداعية،وهذا أمر فيه نظر.فهذه دعوة الصريحة للثورة على الدين ، والقيم والأخلاق ، والقضاء عليها .

إن هذا الطرح يجعلنا نقر بأن رواد الحداثة قد تجاوزوا حدود المفهوم المتعارف عليه في اللغة ، وهو التجديد،ليتبنوا مفاهيم الهدم والتخريب ، وهو ما تبرزه كتبهم النقدية ودواوينهم الشعرية ومؤلفاتهم بشكل عام .

خاتمة:

من خلال كل ماتم التطرق إليه تم استنتاج ما يلي:

– مفاهيم الحداثة عديدة وأشكالها متعددة،وهو ما يجعل التكلم عن حصرها او الإحا طة بها نوعا من الهذيان الفكري أو الجنون المعرفي

– تعددت المرتكزات التي قامت عليها الحداثة وتلخيصها يكمن في الثالوث، العقل، الحرية والذات،وجمعها مع بعض يعني: حرية الذات تكمن في التحرير المطلق للعقل

– تلقى العرب مفاهيم الحداثة بدرجات متفاوتة ،فمنهم من تماهى معها بالذوبان المطلق،ومنهم من تعامل معها بحذر ومنهم من رفضها رفضا تاما.

– تعددت المجالات التي دخلها التحديث ،فلم تدع الحداثة مجالا إلا واقتحمته،ولا ميدانا إلا والتهمته

– يتطلب البحث في الحداثة وآثارها دراسات مستفيضة لتقصي توجهاتها الحقيقية بغية الوقوف على مكان الذات المفقودة والتعرف على الهوية المزعومة بعين ثاقبة ورؤية مائزة.

هوامش:

1 الفراهيدي :كتاب العين، تح:عبد الحميد هنداوي، ج1 ، مادة (حدث)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ص292، 293

2 الزمخشري :أساس البلاغة، تح :باسل العيون السود،ج1 ، مادة(حدث) ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص172

3 ابن منظور :لسان العرب، مادة(حدث)، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1997 ، مج2 ص37

4 الزبيدي :تاج العروس من جواهر القاموس، تح :علي شيري، مج3 ، مادة(حدث)، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1994، ص190 ،189

5 جمال شحيد، وليد قصاب :خطاب الحداثة في الأدب، الأصول والمرجعية، ص14

6 نفسه ص20

7 ن م،ن ص

8 سهيل إدريس المنهل، قاموس فرنسي–عربي، دار الآداب، بيروت، ط22 ،1999ص 790

9 عبد النور جبور :المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت، ط1، 1997، ص92

10 محمد بوزواوي :قاموس مصطلحات الأدب، دار مدني، الجزائر، 2003 ، ص105 ،104

11 منير الحافظ :التراث في العقل الحداثي، بحوث في فلسفة القيم الجمالية، دار الفرقد، دمشق، ط1، 2001، ص12

12 ن م، ن ص

13 محمد بنيس :الشعر العربي الحديث، ، دار توبقال،الدار البيضاء، المغرب، 2001، ج 4 ص 158 .

14 محمد محفوظ، مفهوم الحداثة، قراءة تاريخية الكلمة، مجلة ثقافية إسلامية تصدر عن منتدى الكلمة للدراسات والأبحاث، بيروت، لبنان، ع 15، 1997 ص44

15 جمال شحيد، وليد قصاب :خطاب الحداثة في الأدب، الأصول والمرجعية، ص14

16 ن م،ن ص

17 ن م، ن ص

18 محمد محفوظ،مفهوم الحداثة،ص44

19 صالح جواد الطعمة ،الشاعر العربي المعاصر و مفهومة النظري للحداثة،فصول، مجلة النقد الأدبي، الهيئة . المصرية العامة للكتاب، القاهرة،ج2 ،مج4 ،ع4 ، يوليو، 1984 ، ص13

20 محمد بنيس :الشعر العربي الحديث،ص160

21 ن م،ن ص

22 نفسه ص 161

23 فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، 1992 ، ص69

24 محمد الشيخ، فلسفة الحداثة في فكر هيغل، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1 ،2008، ص25

25 فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، ص28

26 محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، دار توبقال للنشر،المغرب 2007 ، ص65

27 عثمان أمين، ديكارت، مكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة،مصر، 1969 ، ص28

28سالم القمودي، الإنسان ليس عقلا، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، لبنان، 2001 ، ص85

29 علي حرب، الماهية والعلاقة، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1 ،1998، 214

30 محمد الشيخ، فلسفة الحداثة في فكر هيغل، مرجع سابق، ص26

31 ناصيف نصار، باب الحرية، إنبثاق الوجود بالفعل، دار الطليعة لطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1 ،2003 ص81

32 آمال عبد اللطيف، الأسئلة الغائبة في الديمقراطيات العربية، سؤال المرجعية وأسئلة المجال، فكر ونقد،الرباط،المغرب، العدد 48 ، أفريل 2002 ، ص1

33 فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، ص31

34 محمد سبيلا، الحداثة وما بعد الحداثة، ص64

35 آمال عبد اللطيف، الأسئلة الغائبة في الديمقراطيات العربية، سؤال المرجعية وأسئلة المجال، مجلة فكر ونقد، العدد 48 ، أفريل 2002 ، ص10 ،11

36 انظر:فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، ص29

37 فتحي التريكي ورشيدة التريكي، فلسفة الحداثة، ص 31

38أدونيس،الثابت والمتحول ،بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،دار الساقي، بيروت، لبنان ط7، 1994 ج1 ص21